

في هذه الضفة مؤمنون مستقرون مستروحون ناعمون نائمون مقيلاً في ظلال، وفي الضفة الأخرى، كافرون أعمالهم هباء منثور، وهم خواء مضطربون.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُنزَلُ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥):

ف «يومئذ» هناك هو يوم لما تشقق السماء، ولا نزل الملائكة تنزيلاً، وإنما هو ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ القابضين أرواحهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبُرُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١).

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ هو يوم القيامة التدمير، بتعاظم الغمام فيها، وانتشارها في نواحيها، انتقاضاً لبنيتها، وتغيرها إلى غير ما هي عليها من حالتها، كما تظهر في البناء آثار التداعي، وأعلام التهافت، من تثلم الأطراف، وتفطر الأقطار، فيكون ذلك مؤذناً بانقضاضه، ومنذراً بانتقاضه: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٢).

وترى ما هي تلك الغمام التي تشقق بها السماء؟ علها ظلل من الغمام في ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٣).

﴿... إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٤) ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَهِيَةٌ﴾ (٥) ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٦) كل ذلك بتلك

الغمام وما يدريك ما هي تلك الغمام؟

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٤) سورة الانشقاق، الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٦.

(٦) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

طبعاً ليست هي الغمام الحاملة للماء، بل هي غمام الغمّة، إثر الحملة المدمرة لبناء السماء، أم والغمام والغازات المدمرة لها، ف «بالغمام» تعم السببية كالثانية، والمصاحبة التابعة كما الأولى.

ولقد كانت السماء بكواكبها يوماً ما غماماً ودخاناً: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (١) وعند قيامتها سوف ترجع غماماً ودخاناً كما كان ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (٢): رجعاً إلى ما كانت.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٣):

﴿الْمَلِكُ﴾ تعني حق الملك والملك الحق مُلك الكون كله، وهو ملكه - وبأحرى - كله، مُلكاً فملكاً حقيقياً في ظاهر الأمر وباطنه، وقد كان العالمون مستخلفين في ظاهر منه لردح من زمن التكليف، ملكة عارية: لهم، عارية عن حق الملك وثابته!

ذلك ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ حيث تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً، ﴿الْمَلِكُ﴾ الحق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الحق، هو فقط ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ ف ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ خبران للملك لصق بعض، أو الحق وصف له وللرحمن خبر.

صحيح أن الملك الحق هو - منذ كان - كان للرحمن، لأنه مالك الملك، ولكن مالكيته وملكيته بارزتان يوم الدين مهما خفيتا للأخفاء والأخفاء يوم الدنيا، فإن دار التكليف هي دار الامتحان، يستخلف فيه الإنسان لذلك الامتحان.

﴿وَكَانَ﴾ يوم الملك الحق للرحمن ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ وللمؤمنين يسيراً: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٤) فذلك يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرٌ﴾

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة الطارق، الآية: ١١.

يَسِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾ إِذْ كَانُوا يَتَحَسَّبُونَ أَنَّ لَهْمَ الْمَلِكِ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ فَوَجَدُوهُ حَقًّا لِلرَّحْمَنِ وَهُمْ أَمَامَ حِسَابٍ عَظِيمٍ عَظِيمٍ .

ذلك يوم قيامة الإمامة التدمير، ومن ثم يوم قيامة الإحياء التعمير:

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾  
يَتَوَلَّى لَيْتِي لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي  
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ :

﴿الظَّالِمُ﴾ هنا ليس كل ظالم، إنما هو الظلام حيث ﴿يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ فلا تكفيه يد واحدة أن يعص عليها، حيث ظلم بيديه، بكل طاقاته، فلذلك ﴿يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ لشدة ما يعانيه من الندم اللادع المتمثل في ذلك العض العضيض، وهو صورة عسيرة من صور ذلك اليوم العسير، على الكافرين غير يسير، حركة معهودة ترمز إلى حالة بئيسة تعيسة، في ندامة عميقة ولات حين مناص، إذ فات يوم خلاص .

وقد وردت في شأن نزولها روايات «كما في عقبة بن معيط، حيث كان يكثر مجالسة النبي ﷺ فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، فعاتبه صديقه ابن أبي خلف قائلاً له: صبأت! فقال: لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له، فقال: لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك فقال له النبي ﷺ: لا ألك خارج مكة إلا علوت رأسك بالسيف، فأسر يوم بدر فأمر علياً فقتله .

ولا تناحرها ما وردت في شأن غيره ممن لم يتخذ مع الرسول سبيلاً<sup>(٢)</sup> مهما اختلفت الدركات، بترك مختلف البركات .

(١) سورة المدثر، الآيات: ٨-١٠ .

(٢) في متظافر الروايات عن أئمة أهل البيت  أن السبيل هنا هو علي بن أبي طالب  =

فالذي يعرف الرسول برسالته، ثم لا يتخذ معه سبيلاً إلى ربه، هو الظالم بحق الرسول وسبيله، وبحق نفسه في سبيلها فليعض على يديه، متحسراً حسيراً، ومتعثراً كسيراً.

ترى ذلك الرسول، وقد عرفه، أفلا تكفي معرفته سبيلاً إلى ربه، ليتخذ معه سبيلاً، ولا سبيل مسلوكة إلى الرب إلا الرسول بقرآنه المبين، وبرهانه المكين؟ ثم وما هي تلك السبيل؟.

الرسول سبيل إلى الرب، ولكن معرفة هذه السبيل تتطلب دخولاً إلى مدينة علمه من بابها التي عرف بها، حتى تكتمل المعرفة، فتسلك ذلك السبيل دون تزعزع وتلكؤءٍ، ولكيلا يضلّه فلان الخليل عن ذلك السبيل.

ولقد تواتر عن الرسول ﷺ قوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»<sup>(١)</sup> «أنا

= وممن رواه محمد بن العباس قال حدثنا أحمد بن أبي القاسم عن أحمد بن محمد السيارى عن محمد بن خالد عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام وعن محمد بن خالد عن محمد بن علي عن محمد بن فضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر وعن محمد بن إسماعيل بإسناده عن جعفر بن محمد الطيار عن أبي الخطاب عن أبي عبد الله . . . وأخرج أبو سعيد في شرف النبوة عن رسول الله ﷺ قال: «أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلاً» (ذخائر العقبى ص ١٦) - وأخرجه مثله الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٥٧ .

(١) يروى عن ١٤٣ مصدراً من أعلام الحديث كلهم من إخواننا السنة، ولقد صححه جمع من الحفاظ وأعلام الحديث، وممن صححه الحافظ أبو زكريا يحيى بن معين البغدادي المتوفى ٢٣٣ والطبري ٣١٠ في تهذيب الآثار، والحاكم النيسابوري ٤٠٥ في المستدرک والخطيب البغدادي ٤٦٣ والحافظ أبو محمد الحسن السمرقندي ٤٩١ في بحر الأسانيد، ومجد الدين الفيروزآبادي ٨١٦ في النقد الصحيح والحافظ جلال الدين السيوطي ٩١١ في جمع الجوامع والسيد محمد البخاري في تذكرة الأبرار، والأمير محمد اليماني الصنعاني ١١٨٢ في الروضة الندية، والمولى حسن الزمان عده من المشهور المستحسن، وأبو سالم محمد بن طلحة القرشي ٦٥٢، وأبو المظفر سيف بن قزاوغلي ٦٥٤، والحافظ صلاح الدين العلاني ٧٦١، وشمس الدين محمد الجزري ٨٣٣، وشمس الدين محمد السخاوي، وفضل الله بن روزبهان الشيرازي، والتمتقي الهندي علي بن حسام الدين ٩٧٥، وميرزا محمد البدخشاني، وميرزا محمد صدر العالم وثناء الله باني بني الهندي.

دار الحكمة وعلي بابها»<sup>(١)</sup> «أنا دار العلم وعلي بابها»<sup>(٢)</sup> «أنا ميزان العلم وعلي كفتاه»<sup>(٣)</sup> «أنا ميزان الحكمة وعلي لسانه»<sup>(٤)</sup> «أنا المدينة وأنت الباب ولا يؤتى المدينة إلا من بابها»<sup>(٥)</sup> !.

لذلك نراه عليه السلام ، يسد الأبواب كلها إلا بابه، فلقد «كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب شارعة في المسجد، قال يوماً: سدوا هذه الأبواب إلا باب علي عليه السلام فتكلم في ذلك ناسٌ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد - فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، وإني ما سددت شيئاً ولا فتحتة، ولكنني أمرت بشيء فاتبعته»<sup>(٦)</sup> .

- (١) أخرجه الترمذي في جامعه الصحيح ٣: ٢١٤، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١: ٦٤ والبغوي في مصابيح السنة ٣: ٢٧٥ وجمع آخر يربو عددهم على ستين من الحفاظ وأئمة الحديث.
- (٢) أخرجه البغوي في مصابيح السنة كما ذكره الطبري في ذخائر العقبى ص ٧٧ وجمع آخرون.
- (٣) أخرجه الترمذي في جامعه الصحيح ٢: ٢١٤ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١: ٦٤ والبغوي عنه كالعجلوني في كشف الخفاء ١: ٢٠٤ وغيره.
- (٤) ذكره الغزالي في الرسالة العقلية وحكاه عند المييدي في شرح الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام
- (٥) أخرجه العاصمي أبو محمد في كتابه «زين الفتى في شرح سورة هل أتى».
- (٦) أخرجه وما في معناه جماعة من الحفاظ وأرباب السنن عن زيد بن أرقم وعبد الله بن عمر بن الخطاب والبراء بن عازب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي حازم الأشجعي وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وسعد بن أبي وقاص وأنس بن مالك وبريدة الأسلمي وأمير المؤمنين علي عليه السلام كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أخرجه عنهم فيمن أخرجه: النسائي في السنن الكبرى والخصائص ص ١٣ والحاكم في المستدرک ٣: ١٤٥ وصححه، والضياء المقدسي في المختارة، والكلابادي في معاني الأخبار، وسعيد بن منصور في سننه، ومحب الدين الطبري في الرياض ٢: ١٩٢، والخطيب البغدادي في تاريخه، والكنجي في الكفاية ٨٨، وسبط ابن الجوزي في التذكرة ٢٤٥، وابن أبي الحديد ٢: ٤٥١، وابن كثير ٧: ٣٤٢، وابن حجر في القول المسدد ١٧، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر ٧: ١٢، والسيوطي في جمع الجوامع كما في الكنز ٦: ١٥٢، ١٥٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٤، والعيني في عمدة القاري ٧: ٥٩٢، =

ذلك تأشيراً عسيراً لانحصار الباب إليه فيه ﷺ وانحصاره عن سواه، وليتخذوه مع الرسول سبيلاً إلى الله لا سواه!

فمعرفة الرسول كما يحق التزاماً لسبيل الله، هي السبيل الواضحة إلى الله، ف «سبيلاً» مع الرسول هي سبيل إليه، وهما معاً سبيل إلى الله.

كيف لا وهو شاهد منه ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾<sup>(١)</sup> وكما يروى عنه ﷺ: «علي مني وأنا منه، لا يؤدي عني إلا أنا أو علي»<sup>(٢)</sup> «إن علياً مني وأنا منه»<sup>(٣)</sup> «علي مني مثل رأسي من بدني»<sup>(٤)</sup> «منزلة

= والبديخي في نزل الأبرار، وابن أبي شيبه، وأبو نعيم، والحموي في الفرائد ب ٢١، وأبو يعلى في الكثير، وابن السمان في الموافقة، والجزري في أسنى المطالب، والخوارزمي في المناقب، وأبو نعيم في الحلية، والحافظ البزاز... قال ابن حجر في فتح الباري والقسطلاني في إرشاد الساري ٦: ٨١، أن كل طريق من هذا الحديث صالح للاحتجاج فضلاً عن مجموعها (الغدير للعلامة المغفور له الأمين ٣: ٢٠٢ - ٢٢٩).

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

(٢) حديث صحيح رجاله كلهم ثقات - أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤: ١٦٤ - ١٦٥، بأسانيد أربعة، والحافظ ابن ماجه القزويني في سننه ١: ٥٧، والحافظ أبو عيسى الترمذي في جامعه ١٣: ١٦٩ و ٢: ٤٦٠ و ٢١٣ والنسائي في الخصائص ٢٦ وابن المغازلي في المناقب بأسانيد متوفرة، والبغوي في المصابيح ٢: ٢٧٥ والخطيب العمري في المشكاة ٥٥٦ والكنجي في الكفاية ٥٥٧ والنووي في تهذيب الأسماء واللغات، والمحب الطبري في الرياض ٣: ٧٤ عن الحافظ السلفي وسبط ابن الجوزي في التذكرة ٢٣ والذهبي في تذكرة الحفاظ وابن كثير في تاريخه والسنحاري في المقاصد الحسنة والمناوي في كنوز الدقائق ٩٢ والحموي في فرائد السمطين ب ٧ والسبوطي في الجامع الصغير وجمع الجوامع وابن حجر في الصواعق ٧٣ والمتقي الهندي في كنز العمال عن (١١) حافظاً والبديخشاني في نزل الأبرار (٩) والفقهاء شيخ بن العيد روس في العقد النبوي والشبلنجي في نور الأبصار ١٥٥ كلهم أخرجوه ورووه عن حبش بن جنادة وعمران وأبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ.

(٣) رواه البخاري في ٤ من صحيحه عن عمر بن الخطاب وفي الجمع بين الصحاح ٢ من عدة طرق ومنها ما عن جنادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: علي مني... ورواه ابن المغازلي من عدة طرق بأسانيد.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن المغازلي بالإسناد عنه ﷺ وابن الأثير في جامع الأصول عن البخاري ومسلم بسنديهما عن البراء بن عازب عنه ﷺ.

علي مني منزلتي من الله تعالى»<sup>(١)</sup>.

لا فحسب بل هو نفسه لآية أنفسنا: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.


فتارك السبيل مع الرسول ﴿يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ قررها الله والرسول.

﴿يَوَلِّيَّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا حَلِيلًا﴾ فلان الذي خلّ فيّ وأخلّ، وأضلني عن سبيل مع الرسول، أيّاً كان هذا الفلان، فلان يضل عن رسالة الرسول، فلا سبيل الرسول ولا سبيل مع الرسول! كما أضل ابن أبي خلف عقبة بن أبي معيط، أو فلان يضل عن كامل رسالته حيث يغلق باب مدينة علمه ويفتح أبواباً سدها الله، كمن يصد عن باب مدينة علم الرسول، أم وأي فلان يحول دونك والرسول فيما يفعل أو يقول، مهما اختلف فلان عن فلان، فضلال عن ضلال، أضلّه قطع سبيل الرسول عن بكرتها في نكرتها.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي﴾ فلان ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ الرسول ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وذلك خسران مبين وخذلان عظيم ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

ومن أخذل من العطشان الذي يأتيه ماء فرات ثم يضلّه عنه فلان فيموت عطشاناً؟ . . . ومن أرذل من الذي يؤمن بالرسول ثم يكفر بسبيل صالحة مع الرسول فيضل عن الرسول بعد إذ جاءه.

هنالك سبيل مع الرسول إلى الله، من قرأه كثقل أكبر، ومن عترته كثقل

(١) أخرجه الحافظ ابن المغازلي كما في العمدة لابن بطريق ٥٣ بإسناده عن بكر بن سوادة عن قبيصة بن ذؤيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله عنه  والسيرة الحلبية ٣: ٣٩١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

أصغر، ومن تقوى صالحه اتباعاً للثقلين، وكما الرسول ﷺ هو مجمع الثقلين، مثلث من السبل مع الرسول، كما الرسول سبيل معها، ولكنه هو رأس الزاوية من مربع السبيل إلى الله، ف﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(١)</sup>.

كل ذلك سبيل معه إلى الله في النهاية، مهما كانت سبلاً إلى رسول الله في البداية، فكلمة واحدة في سائر القرآن ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> دون سبيل رسول الله أم سواه، ولا يعني ﴿سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> إلا سبيلهم مع الرسول إلى الله وكما قررها الله.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾<sup>(٤)</sup>:

﴿وَقَالَ﴾ عليها عطفاً على «ويوم» حكاية عن قيله يوم العَصِّ، لأن القرآن هو المحور الأصيل من السبيل مع الرسول ﷺ فهجر القرآن هو هجر الرسول وعترة الرسول.

ثم و﴿قَوْمِي﴾ لا يخص الظالم الذي يعرض على يديه، فإنهم كل من وجبت عليهم الدعوة الإسلامية في طول الزمان وعرضه، فقليل هؤلاء الذين لم يتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وكثير هؤلاء الذين اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وكما نراه طول التاريخ الإسلامي.

ومهما ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ قوله الشاكي عند ربه يوم الأخرى، فهو قائله يوم الأولى، كما نعرفه من طيات شكواه.

فإن الصلة القرآنية درجات، وهجره دركات حسب ترك الدرجات:

فمنهم من هجروا الإيمان به، فلم يفتحوا له أسماعهم، بل وجعلوا

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) يذكر السبيل في القرآن (١١٦) مرة ولا يعني خيرها إلا سبيل الله، أم وسبيل المؤمنين وهي أيضاً سبيل الله.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.



أصابهم في آذانهم، خوفاً منهم أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه رداً، ثم وهجروا فيه بما هرفوا وخرفوا وألغوا فيه.

ومنهم من أسلم له نفاقاً دون وفاق، إسلاماً في صورته، وكفراً بسيرته وهم المنافقون.

ومنهم من آمن به، سامعين لآياته وقارئين، ولكنهم لا يتدبرون معانيه، ولا يستشعرون مبانيه ومغازيه.

ومنهم من يعتمده الأصل الأوّل والأخير من التشريع الإسلامي، وعلى ضوئه السنة المحمدية، ولكنهم هجروا دراسته، وأخلدوا إلى ما يسمونه علوماً إسلامية، تخيلاً أنها تقدّمهم لتفهمه، وبالمآل نرى الحوز الإسلامية تؤصّل كل دراسة إلا القرآن، لحد أصبح طالب علوم القرآن ودارسه ومدرسه ومفسره من البطالين في قياسهم، البعيدين عن العلوم الحوزوية، فأصبح القرآن مهجوراً عن حوزاته، لا يدرس إلا هامشياً دونما تدبر لائق به ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾<sup>(١)</sup>؟ أجل وعلى قلوب أقفالها في إغفالها القرآن وإقفال باب مراسسته في دراسته.

فنحن - إذاً - ممن لم يتخذ مع الرسول سبيلاً، حيث هجرنا أعظم السبل معه إلى الله وهو كتاب الله، ومن خلفياته ترك الرسول بترك سنته حيث لا تعرف إلا عرضاً موافقاً لكتاب الله، فقد تركنا - إذاً - كلا الثقليين، فنحن من الظالمين الذين يشكونا الرسول عند ربه يوم يقوم الأشهاد.

وهكذا راح القرآن يهز القلوب المقلوبة بهذه المشاهد المنزلّة المزمجرة، التي تجسّم فيما يجسّم لهم مصيرهم المخيف وهم بعد أحياء يرزقون، وليعلموا أن وعد الله حق.

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣٦) :

﴿جَعَلْنَا﴾ هذا جعل تكويني في خلق ﴿عَدُوًّا﴾ لا تشريعاً لعدائه، ولا خلقاً لعداوته، وإنما عدم التسيير في ترك عدائه حيث الدار دار الاختيار في كل خير وشر، دون تسيير وإجبار: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَرُونَ﴾ (١١٢) وَلِنَصِّعَ إِلَيْهِ أَفْعَادَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣) ﴿١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الظَّالِمِينَ لِنُفِئَ شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤) ﴿٢﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ الذي ترى طول الرسالات ﴿جَعَلْنَا﴾ ولكنهم ليسوا ليضروا الله شيئاً، ولا رسل الله ولا المؤمنين بالله ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ برسوله وكتابه تشريعاً، وبما يوفق المؤمنين به تكوينياً ﴿وَنَصِيرًا﴾ لهم في معارك الشيطانات ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٣) .

إن هدايته تعالى لطلابها ونصرته هنا ذات أبعاد: بُعد الحفاظ على الإختيار، إلا يُسيّر أعداء النبوات على ترك عدائهم، وبُعد الحجّة البالغة الغالبة على طول خط الرسالات، غير المغلوبة على أية حال، ومن ثمّ حكمة بالغة هي أيضاً هدى ونصرة للمؤمنين وضلال للكافرين، أن لو كانت

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١١٢، ١١٣ .

(٢) سورة الحج، الآيات: ٥٢ - ٥٤ .

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٦ .